

الباب الرابع

القدماء والمحدثون

١ - تعريف

”كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله من الشعراء . وكان أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤هـ) يقول : لقد أحسن هذا المولّد حتى لقد هممت أن آمر صبياننا بروايته ؛ يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق ... وكان لا يعدّ الشعر إلا ما كان للتقدّمين^(١) .

وقد قسموا الشعراء إلى : جاهلي ، ومخضرم ، وإسلامي ، ومولّد . وقسموهم أقساما غير ذلك . ولكن التسمية التي استقرت أخيرا ، هي قسمتهم إلى : قدماء ، وإلى محدثين . وأصبح هذا التقسيم تناوله الأجيال بعضها من بعض ، بمداولة العلمى وليس بمداولة اللغوى .

وتراهم يطلقون القدماء على شعراء العربية ابتداءً من الجاهليين منهم ، حتى ابن هرمة الذي كانوا يعدّونه آخر من يُستشهد بشعره^(٢) ويقولون عنه ، وعن ابن ميادة ، ورؤبة ، والحكم الحضري :
لهم ساقية الشعراء^(٣) .

أما المحدثون فننّ بشار إلى من يليه . ولا يعدّ ابن المعتز فيمن يأتي بهم في كتابه البديع من المحدثين أحدا قبل بشار . ويسمونه أبا المحدثين ، وتختلف آراؤهم فيه .

٢ - القدماء

كان شعر الجاهليين تصويرا صحيحا لحياة البادية التي يحبونها ، وتعبيرا صادقا عما يحسون .

(١) نهج القصيدة : كانوا يفتتحون القصيدة بالنسيب ، فيذكرون ”الرحيل والانتقال ، وتوقع البين والإشفاق منه ، وصفة الطلول والخيول ، والتشوق بحنين الإبل ، ولعل البروق ، ومرّ النسيم ، وذكر المياه التي يلتقون عليها ، والرياض التي يحلون بها ، من نخاع ، وأقحوان ، وبهار ،

وَحَنُوءٌ ، وَظِيَانٌ ، وَعَرَارٌ ، وَمَا أَشَبَّهَا مِنْ زَهْرِ الْبَرِيَّةِ ، الَّذِي تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ ، وَتَنْبَتُهُ الصَّحَارَى وَالْجِبَالُ ، وَمَا يَلُوحُ لَهُمْ مِنَ النِّيرَانِ فِي النَّاحِيَةِ الَّتِي بَهَا أَحْبَابُهُمْ . وَلَا يَفْدُونُ النِّسَاءَ إِذَا يَفْزَلُوا أَوْ نَسَبُوا^(١) .

وهذا النمط من النسيب قد ظل ملازماً شعر البادية إلى زمن متأخر ، حتى ليصوّر لنا به ابن رشيق غزل البادية في أيامه .

فإذا فرغ الشاعر من غزله قصد إلى الغاية التي كان يريد بها بالقصيدة ، من فخر ، أو مدح أو هجاء . وكان من عاداتهم في المدح " أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز ، وما أنضى من الركائب ، وما تجشم من هول الليل وسهره ، وهول النهار وهجره ، وقلة الماء وغوره ، ثم يخرج إلى مدح المقصود ... وكانت دواهب الإبل ، لكثرتها وعدم غيرها ، ولصبرها على التعب ، وقلة الماء والعلف ، فلهذا أيضاً خصوها بالذكور دون غيرها . ولم يكن أحدهم يرضى بالكذب ، فيصف ما ليس عنده كما يفعل المحدثون^(٢) " .

" أما المراثي فكان من عادة القدماء أن يضربوا الأمثال فيها بالملوك الأعزّة ، والأئمّ السالفة ، والوعول المتنعة في قلل الجبال ، والأسود الخادرة في الغياض ، وحر الوحش المنصرف بين القفار ، والنسور والعقبان والحيات ، لباسها وطول أعمارها . وذلك في أشعارهم كثير لا يكاد يخلو منه شعر^(٣) " .

(ب) صنّاع الشعر : ولقد كانوا ينقسمون ، كما أنقسم المحدثون من بعدهم ، إلى جماعة يطلبون المعنى ، وجماعة أخرى تجوّد اللفظ ، وترصد له الوقت الطويل . ويمكن أن تسمى هذه الطائفة الأخيرة : طائفة صنّاع الشعر .

فكان أمرؤ القيس من أصحاب المعاني . يقول ابن رشيق ... " وكان أمرؤ القيس مقلاً ، كثير المعاني والتصرف ، لا يصح له إلا نيف وعشرون شعراً ، بين طويل وقطعة ، ولا يكاد يفلت شاعر من حبائله^(٤) " .

وكان زهير ينظر في شعره ، فينفى الرديء ويبقى الجيد ، وتسمى قصائده بالحوليات وقد تبع في ذلك أستاذه : هما أوس بن حجر ، وطفيل الغنوي^(٥) . وتبع زهيراً في ذلك تلميذه الخطيئة . وكان

(٣) العمدة ج ٢ ص ١٢٠

(٢) العمدة : ج ١ ص ١٥١

(١) العمدة : ج ١ ص ١٥٠

(٥) العمدة ج ١ ص ١٣٢

(٤) العمدة ج ١ ص ٦٧

يقول "خير الشعر الحولى المحكك" ويلاحظ ابن رشيق أنه كان يتبع في ذلك زهيراً وأوساً^(١). فهذه المدرسة الأخيرة يمكن أن يطلق عليها : مدرسة الصنعة .

ولكن هذه الصنعة لم تكن كصناعة المحدثين "فالعرب لا تنظر في أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة للفظ ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون"^(٢) وإنما كانت تطلب "شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم قصص السبق لمن ، وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبدء فأغزر ، ولمن كثرت سواثر أمثاله ، وشوارد أبياته ولا تحفل بالابداع والاستعارة ، إذا حصل لها عمود الشعر ، ونظام القريض . وقد كانت يقع ذلك في خلال قصائدها ، ويتفق لها في البيت بعد البيت ، على غير تعمد وقصد"^(٣).

وسار الناس على ذلك ، وهذا الذى صورته من الشعر ، إنما هو شعر البداية منهم ، أما شعر من كان يسكن أطراف الجزيرة ، ويخالط أهل الحضرة ، فكان يتأثر بمزاجهم ، فيصف الخمر والنساء ، وما يرى من ألوان الحضارة ، وصفا لا يسلم ، مع لينة ، من بداوة .

٣ - الانتقال

(١) عصر الفتح الأول والخلافة الشرعية : حتى إذا جاء الإسلام وقلب الأوضاع الجاهلية ، والمثل الاجتماعية ومس أصول كل شيء في حياة العرب ، وأثر في عقولهم وطباعهم ، أخذ الشعر يستجيب لذلك بعض الاستجابة . ولما آتست الفتوحات ، وأنسط نفوذ العرب على أعم سبقتهم إلى حضارات عريقة وترف ، وأساليب من العيش والحكم ، (لم يكن للعرب سابق عهد بها ، اهتدت لذلك النفس العربية ، والشعر أبداً نجى النفس ومرآتها ، فظهر أثر ذلك فيه . ولكن هذا العصر ، عصر استقرار النفوذ العربى في عهد الخلفاء الأول ، كان عهد كفاح من نوع ذلك الكفاح العملى ، الذى يهون الى جانبه القول ؛ كان عصر اختزان النفس للأحداث ، يليه عصر القول والفيض .

(ب) تحول الخلافة الى ملك وأثر ذلك في الشعر : فما كاد الخليفة الثالث يقتل ، ويدب الخلاف وتشور الفتن ، حتى أخذ الناس ينظرون في أعماق نفوسهم ، وأخذت تلك الآمال الجسام التى قامت على وحدة الأمة العربية تتضعضع ، وأطلقت العصبية من عقالها ، فغلت نفوس

(٣) الوساطة : ص ٣٧

(٢) العمدة : ج ١ ص ٨٣

(١) العمدة : ج ١ ص ١٣٤

الناس بألوان مختلفة من الإحساسات، وضروب شتى من العواطف . ثم حلت بين هذا كله الملكية محل الخلافة، وتزلزلت تلك الهيبة الدينية التي كانت تحوط نظام الحكم — وذلك إن كان قد بدأ أيام عثمان ، فلم يظهر ظهوراً واضحاً إلا بعد قيام ملك معاوية . وقام هذا الملك على تلك الدعائم التي يقوم عليها أبداً كل مُلك؛ وأحس كثير من العرب بالهوية، فعادوا إلى بواديهم كما يلجأ الزاهد إلى صومعته . ويستطيع الإنسان أن يدرك مقدار اليأس الذي آستولى على أولئك، بعد أن رأوا ذلك المثل الأعلى الذي كانوا في سبيل إقامته بأنفسهم وأموالهم ودمائهم، يهوى كما يهوى الطود الشاخص، بين صليل السيوف، ووهج الحقد، وتكالب الطمع . عاد قوم إلى باديتهم، وحبس آخرون في حواضرهم، وقد خلى بينهم وبين ذلك السبيل من الحزبية ، الذي لا يمس الدولة في شيء، وإنما يريحها منهم ، وقدمت أيديهم مالا . فشغلوا بين الفراغ والجدّة، والطموح والعجز، بألوان من اللهو، وصنوف من القول ترضى هذه العواطف جميعاً . فازدهر لذلك الشعر السياسي والغزل^(١) .



(ج) التجديد والخصومة فيه] خطأ بذلك الشعر العربي على أيدي العرب أنفسهم خطوة واسعة، مطاوعا الحياة التي تحوطه، شأن كل كائن صالح للحياة . ولكن بداوة العرب لم تكن قد فارقتهم، ولم يكن الزمن قد أتاح لهم من نفسه ما يكفي لاستقرار الحضارة ، ورسوخ مظاهرها في النفس بل إن ما منيت به أمة كهذه الأمة العظيمة ، كان يدعو في حالة الحرج النفسي، إلى شيء من تقديس الماضي ، وذكره بالحنين إليه، وتمجيد مثله . فلزم ذلك صياغة القصيدة العربية، حتى لقد بقيت صورتها، وبنيتها، وقافيتها كما كانت في الجاهلية . فكانت، على ما هي عليه، صورة صادقة للنفس العربية في ذلك العهد، بما فيها من اضطراب بين الحنين إلى الماضي ، واندفاع إلى تصوير ما يعتلج فيها، مما أثارته الحياة الجديدة بما فيها من خير وشر . ففيها من أثر المحافظة : الصيغة والنمط ، ومن أثر الحضارة النوع الجديد، والمادة الحادثة شيئا .]

ولما لنسمع في حكم نقاد العصر الأموي ما يصور ذلك تماما . ” سئل أبو عمرو بن العلاء عن الأخطل فقال : لو أدرك يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلت عليه أحداً^(٢) . وأبو عمرو قد شهد عهداً من حكم الأمويين، شهد الحجاج ومن بعده ، ومات في أيام المنصور العباسي سنة ١٥٤ هـ . فهذا الرجل، مع أنه كان متأخراً، إلا أنه كان شديد الحنين إلى الجاهلية .

(١) انظر في هذا كتاب حديث الأرباء للدكتور طه حسين . (٢) المثل السائر : ص ٤٨٩ طبع بولاق .

فكان فيما بينه وبين نفسه برضى شعر الأخطل ، وهو أيضا فيما بينه وبين نفسه يفضل شعر الجاهليين ، ويود لو كان الأخطل منهم . وقد يظن أن حاجته إلى الشاهد كانت هي الأخرى دافعا إلى هذا التقدير الغريب ، ولكن شعر الأخطل مما يستشهد به .

ولكن الحياة لم تلبث أن استقرت ، وضاعت حدة الصدمة الأولى ، فأخذ الناس يرون في الشعر الجديد متنفسا وتصويرا لما يجري في قلوبهم . فأخذ تقدير الشعر الحديث يحل من نفوس الناس محلا لا ثقابه . وإنا لنجد عيسى بن عمر الثقفي النحوي ذلك الناقد العميق (توفي سنة ١٤٩ ، وشهد الدولة الأموية) يفضل الأخطل على الأعشى^(١) . وهناك قصة أخرى ترى كيف أخذ الناس يستسيغون الشعر الإسلامي ؛ ذكرت في مقدمة الجوهرة عن مجلس من مجالس عبد الملك بن مروان ، حضره أعرابي ، فقال كلاما طويلا في لهجات العرب ، يدل على علم بها ، ثم سأله عبد الملك عن أمدح بيت قاله العرب ، وعن أغزل بيت الخ الخ . فكانت هذه الأبيات جميعا للحرير . والقصة بادية الصنع ، صنعها عالم أغلب ما يكون في أوائل العصر العباسي ، ولكنها تعطينا فكرة عن تقدير المسلمين يومئذ للشعر الإسلامي ، وعن نزول تلك المثل الجاهلية عن مستواها القديم في تلك الأيام . والحق أن الناس كانوا يحبون الشعر الجديد ، لأنه يصور لهم نفوسهم تصويرا صحيحا . وهم في هذا يستجيبون لمطالب نفسية صحيحة .

وعلى ذلك فالتيار النفسي الذي كان يوجه الشعر العربي يومئذ ، كان مستقيم المجرى ، طبيعي الأسترسال ، مستمر التقدم على الأيام ، يكمل ما كان منه قبل الإسلام تكملة ، الحلقات لسلسلة التقدم الطبيعية في الحياة . أما ظاهرة غلبة التقاليد الشعرية الجاهلية ، التي أطال عنها الحديث نيكولصن ، فليست إلا طبقة سطحية تملو ذلك التيار النفسي العميق . فما كان لأمة في أية عصر من عصور حياتها أن تعيش من غير شعر يصور ذات نفسها .

وقد نشأت هذه المعارضة السطحية للشعر الجديد بعاملين : أولهما الحنين إلى الماضي ، كما قدمت . وثانيهما أن ذلك العصر كان عصر الجمع والتدوين لآثار السلف ، فشغل العلماء خاصة بذلك ، شغلا كاد ينسيهم أنفسهم^(٢) . وكان لإقبال الناس على قراءة القديم ، والنظر فيه ، واستيضاح معانيه وخصائصه ، لإقامة حياتهم على ماضيهم ، شأن الخلق في ذلك جميعا في كل عصر وفي كل بيئة ، رد فعل عند المشتغلين به ، مظهره ذلك التعصب للقديم عند فئة ، والتعصب للحديث عند أخرى ،

وآستفحال الحصومة بينهما، آستفحالا غلبت فيه نوازع العناد، وحماية الذات والعمل، غلبة كادت تظهر لنا ذلك العصر عصر جمود في الشعر العربي، وما كان كذلك.

فالناس جميعا كانوا يحبسون الشعر الحديث، والعلماء منهم كذلك وإن تعصبوا للقديم. وبين ذلك رأى أبي عمرو بن العلاء السابق. وإنا لنجد صدى ذلك فيما بعد في العصر العباسي، في قصة ابن الأعرابي وشعر أبي تمام، وفي قصة أبي رياش القيسي وشعر البحرى وغيرهما^(١).

فالتعصب للقديم في العصر الأموي لم يكن إلا عند العلماء حين تستغرقهم الفكرة العلمية، فاذا خلوا إلى أنفسهم فهم محدثون، يحسون بالشعر الجديد جمالا لا يجدونه في الشعر الجاهلي.

٤ - المحدثون

(١) شعب جديد ونفوس جديدة: اتسعت رقعة الفتح الاسلامي اتساعا هائلا، وكان العرب هم السادة الفاتحين، وكانوا حاملي لواء الدين الجديد، فكان للنصر وللدين في أول الأمر هبة دفعت إلى استقرار الأمر بادئ بدء في أيديهم. ولم يمض قليل حتى أخذت العصبية والفرقة تدب ديبها بينهم، فأخذت تضعف من هيبتهم وسلطانهم. وكانت دهشة الفتح قد هدأت في النفوس، فأخذت الشعوب المفتوحة تتطلع إلى استعادة السلطان، وتنهت فيها المطامع، وكان اعتماد العرب في إدارة شئون هذه الأقطار الفسيحة، على أهلها من الأعاجم أصحاب الخبرة بها. فكن لهم ذلك شيئا، وكان الدين الذي حمله العرب إلى الناس ينطوى على هدم سيادة العناصر، فاتخذوا الموالي

(١) الوساطة ص ٥٠ و ٥١. يقول الجرجاني في الحديث عن تعصب القدماء على المحدثين ص ٥١ من الوساطة: "ولقد يتفق لأحد هؤلاء غلبة الانصاف على قلبه، في الوقت بعد الوقت، فيخلع رداء العصبية، ويصنى ويميز، فيرجع. حدثني جماعة من أصحاب أبي رياش القيسي، ولا نعرف في زماننا رواية تقدمه، وكان معروفا بالتعامل على هؤلاء، والغرض من أبي تمام والبحرئى خاصة، حتى إن نسخ هذين الديوانين قلت بالبصرة في رفته لقلة الرغبة فيها: أنه أنشد ذات يوم قول البحرئى:

نظرت إل ظران فقلت ليلى	هناك وأين ليلى من ظران
ودون مزارها إيجاف شهر	وسبع لطلا يا أو ثمان
ولما عرفت أعراف سلمى	لحسن وقتت فنز القيان
تصوبت البلاد بنا إليك	وغنى بالإياب الحاديان

فقال: أحسن والله. من هذا البدرئى المطبوع؟ فقيل: إنها للوليد بن عبيد. فقال: أهد. فأعيدت. فرجع عن رأيه فيه، وحض الناس على رواية شعره.

وأما قصة أبي تمام مع ابن الأعرابي فقد أنشده منشداً أبيات أبي تمام في الروض، من غير ذكر اسم صاحبها. فأخذته أخذاً. فلما قيل له: إنها لأبي تمام. قال: نزق نزق.

سلاحا قويا يهدمون به التسلط السياسى لأصحاب الدين . وكانت هناك الفتن بين العرب ، واستعانتهم بالموالى مما جعل لهؤلاء قوة وشأنا .

وكان هناك شىء آخر يجب أن لا ننساه ... ذلك هو ما طرأ على الأمة الإسلامية من التغير من ناحية الدم . فقد امتزجت طبائع بطباع ، وأمم بأمم ، وتكون من هذا مزاج جديد لطائفة فضمة من العرب ، هم المولدون الذين كانوا يكونون أغلبية الأمة الإسلامية . وهؤلاء بما فطروا عليه ، وخلقوا منه ، في حاجة إلى شعريلائم تكوينهم النفسى الغريب عن التكوين العربى الخالص وهذا الشعر لغته هى العربية ، لغة الحديث والكتابة والدين . فكان لهذا كله ، أثره فى تجدد الشعر العربى ، واتساع آفاقه آنساعا جديدا . أو بالأحرى اتجاهه اتجاهها جديدا ، يغير ذلك الاتجاه الذى كان يتجهه فى عهد تسلط العرب وقيام ملكهم ، أى إلى ما يقرب من آخر عهد الأمويين . وليس لنا هنا أن نفترض ماذا كان يمكن أن يتجه فيه الشعر العربى لو أن السلطان والغلبة قد استقرتا لهم ، بعد أن ثبت قبولهم للتطور ، وقبول لغتهم لفنين جديدين واسعين ، لا يزالان صورتين خالدين من صور النفس الانسانية : الغزل الخالص والسياسة . ولكن إذا كان لنا أن نقيس الأمور بمقدماتها وطلائعها ، فإن الشعر العربى قد خسر كثيرا .



(ب) الشعر الأعجمى والصنعة : ابتدأ الشعر الأعجمى ، وأولى بنا أن نسميه كذلك ، بنظم الموالى شعرا فيه روح جديد ، فى العصر الأموى . ولم تنفر منه العرب ، ولكن لم تلبث الشعوبية أن عملت عملها . فاذا بهذه القارة تنقلب إلى غارة إيجابيه شعارها الهجوم ، وتلب العرب فى شعرهم ومواهبهم . بدأ ذلك بشار بن برد . وبشار ككل الرجال الأفذاذ الذين يفتحون عصرا جديدا ، والذين تهيئهم الطبيعة بسميزات لولاهما لما استطاعوا أن ينهضوا بالخل فى أوله .

كان بشار فارسى الأب ، أبوه من فرس طخارستان ، من سبي المهلب بن أبى صفرة ، وهبه لأمراة من بنى عقيل ، فترجته ونسب إليها ، وولدت منه بشارا . وكان عابثا ، لا يهاب شيئا ، سائر الشعر ، خصب النفس . وكان شعوبيا يميل إلى الفرس ميلا غريزيا واضحاً . ولا بد من التنويه بأن بشارا قد عاش فى عصر ترجمة ما ترجم أول الدولة العباسية من آثار الفرس واليونان . فقد مات سنة ١٦٧ هـ فى ولاية المهدي . ولست بهذا أحاول أن أرجع شعر بشار إلى أصول من هذه ، ولكنى أذكرها على سبيل الاستئناس وإلقاء النور على ثقافته قدر المستطاع .

(١) راجع ما كتب الأستاذ أحمد أمين عن هذا فى كتابه بخر الإسلام ، وضفى الإسلام .

كان هذا الرجل طارئا على العربية، يكتب بها معبرا عن حال غير حال أهلها، فصوّر نفسه فيها. وكان جريئا في ذلك، ففتح فيها فتحا جديدا. "وقالوا: أول من فتح البديع من المحدثين بشار، وأبن هرمة، وأبن ميادة ساقفة العرب، وآخر من يستشهد بشعره. ثم تبعهما كلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور الثمري، ومسلم بن الوليد، وأبو نواس. وأتبع هؤلاء حبيب الطائي، والوليد البحرى، وعبد الله بن المعتز^(١)".

- وقد شبهوا بشارا بآمرئ القيس، لتقدمه على المولدين وأخذهم عنه. ومن كلامهم: بشار أبو المحدثين^(٢). وأمرؤ القيس معروف بأنه صاحب معان، فكأنهم يريدون أن يقولوا إن بشارا كان صاحب معان، وهذا معروف أيضا. ويقول ابن رشيق "بشار كان يصنع الخمسات، والمزدوجات عبثا بالشعر"^(٣). فتجديد بشار للشعر كان في نواح ثلاث:

(١) لفظه. (٢) معانيه. (٣) صياغته (وإن كانوا يروون أن امرأ القيس كان ينظم الخمسات^(٤)). فالرجل في هذا متحيز من كل ما كان يقيد سابقه، وكان يعبر عن حياة جديدة، فيها ترف في الملبس، وترف في كل شيء. فلم يكن بد من أن يظهر هذا الترف في لفظه، ومعانيه، وصياغة شعره.

وإن ما يستوقف النظر هنا، هو مشاركة ابن هرمة العربى لهذا الفارسي، في فتح البديع في شعر المحدثين. ولكن، كما قلت: إن هذا العصر كان عصر الترجمة، والاضطراب بين الثقافات الأجنبية. والعرب كانوا على استعداد، فيما يظهر، لأن يخطوا حيث تقودهم الحياة.

تسلم أبو نواس ومسلم الشعر من بشار، ولهما من جدّة النفس وسعة الأفق ما ليس له، فبنى كل منهما من حيث انتهى سابقه من ناحية. أخذ أبو نواس ناحية المعنى، وإن لم يبعد بعدا تاما عن الصنعة. يقول ابن رشيق: "إن أبا نواس كان يتفقد شعره، ويبعد فيه نظره، فينفى الدنى ويبقى الجيد^(٥)". كما يذكره ابن المعتز في أصحاب البديع وذلك باد في ديوانه.

أما مسلم فقد أخذ جانب البديع، يطلب الاستعارة ويتحرى الجناس والطباق والمقابلة، نحوى الطالب لها، حتى آثمهم بأنه أول من أفسد الشعر. "كان يبطن كثيرا في صنعته ويمجدها، وهو زهير المولدين^(٦)". ولكنه لم يخرج عن نمط القصيدة العربية.

(٣) العمدة: ج ١ ص ١٢٠

(٢) العمدة: ج ١ ص ٨٥

(١) العمدة: ج ١ ص ٨٥

(٦) العمدة: ج ١١ ص ٨٥

(٥) العمدة: ج ١ ص ١٣٤

(٤) العمدة: ج ١ ص ١٢٠



أما أبو نواس فكان حاقدا على العرب ، شعوبيا ، فأتخذ وسيلة للسخرة منهم نهج القصيدة العربية ، يضحك منها ، ويستخويها ، ويدعو إلى ترك ذلك النهج من الغزل الذي كانت تستفتح به عادة ، وهو البكاء على الأطلال ، وحبس الركب عليها . قال :

ودار ندأى عَطَّلوها وأدبلحوا بها أثر منهم جسد يد ودارس^(١)
مَسَاحِبُ مَنْ جَزَّ الزَّفَاقُ عَلَى الثَّرَى وأضغاثُ رِيحَانٍ جَنِيٍّ وَيَابِسِ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي بِخَدَّتْ عَهْدَهُم وإني على أمثالٍ تَلَكَّ لِحَابِسِ
وقال :

دَعِ الْأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ وتبكي عهد جَدَّتْهَا الْخَطُوبُ
وخلَّ لِرَاكِبِ الْوَجَاءِ أَرْضَا تُحْتُّ بِهَا النَجِيبَةُ وَالنَجِيبِ
ولا تأخذُ عَنِ الْأَعْرَابِ لَهْوَا ولا عيشاً فَعِيشَهُمْ جَدِيدِ
ذِرِ الْأَثْلَانَ يَشْرِبُهَا أَنَاسُ رَقِيقُ الْعَيْشِ عِنْدَهُمْ غَرِيبِ^(٢)
الخ

وهي أبيات من أقذع الهجاء . ولا أظنها موجهة إلى القصيدة العربية ، قدر ما هي موجهة إلى العرب أنفسهم . فقد كان مضى قبل أبي نواس عهد تغير نمط القصيدة العربية فيه شيئا عند العرب أنفسهم ، حين تحضروا وتركوا البداوة . فلم يثر من أجل تغير النمط أحد . وعندى أن خصومة أبي نواس ، أقامت حول القصيدة العربية ضجة صورتها في غير صورتها . حتى لقد قررت في ذهن الناس أنها إنما تقوم على هذا الذي ينهيه أبو نواس عليها ، وليست تقوم على غيره ، مع أن نمط القصيدة العربية كان قد تجدد منذ عهد طويل قبل العباسيين ، مسيرة للحياة . ليس معنى هذا أن أبا نواس قد تجرد تماما من القديم ، فإن لحمة القديم / وما كانت الثورة في يوم على القديم سببا في نبذه كله . فلو تجرد الحاضر من كل قديم ما وجد الحاضر نفسه . وإنما الأمر انتزاع بعض الأساليب التي لا تتلاءم مع الزمن ، ولا تجارى الحياة . فأبو نواس كان يمدح كما يمدح القدماء ، ويضحك كما يضحك القدماء ، ولكنه لم يرض الرحلة ، ومحاطبة الأطلال وبكاءها ، لأنه ليس في بغداد التي كان يعيش فيها ما يتصل بالأطلال . فلم يكن بد من نزع الأدعاء ، والبعد عن تكلف الكذب .

(ج) نهاية الصراع بين شعر العرب وشعر الأعاجم : وكما انتهى النضال الأجماعي والسياسي بين العرب والأعاجم بأن ذاب العرب في هذه الأمة الجديدة التي خلقوها ، كذلك ذاب

الشعر العربي في شعر هذه الأمم الجديدة . ولا غرابة في ذلك ، فقد كان الفارثون لهذا الشعر قوماً ، هم والشعراء يتشابهون في الدم والمزاج والميل . ولم يبق يتعصب للقديم إلا جماعة العلماء ، الذين كانوا يطلبون الشاهد ثم أصبحت الحاجة . كما يقول ابن رشيق .

وحتى هؤلاء قد خدعوا بجملات خصومهم ، فاتجهت أنظارهم ، إلى الشعر الجاهلي أو ما يقرب منه منهاجاً ، ونسوا ما سواه ، فكانت حملات خصومهم عليهم أشد لذة وإيلاماً . فجملة أبي نواس لم تكن من ناحيتها الفنية موجهة إلى المثل الأعلى للقصيدة الإسلامية ، بقدر ما كانت موجهة إلى المثل الأعلى للقصيدة الجاهلية .

التجديد في المادة والصورة : جد على يد المحدثين في الشعر العربي فن لينة ما كان . ذلك هو فن الغزل بالمثلم كرهو يمثل ناحية من النواحي الخلقية لهؤلاء الذين كانوا ينطقون بلسان ذلك العصر ، كما يصور ناحية من نفس الجمهور الذي كان يقبل شعرهم . وجد على يد أبي العتاهية فن الشعر المقول في الزهد .

كذلك تناول التجديد مادة الشعر في ذلك العصر ، فكان يأخذ صوره من الحياة وما فيها . يقول الجرجاني في وساطته ^(١) " فلما ضرب الإسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادي إلى القرى ، وفشا التأدب والتظرف ، آتخذ الناس من الكلام ألينه وأسهله ... وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل ، حتى تسمحوا ببعض اللحن ، وحتى خالطهم الركاكة والعُجمة ، وأعانهم على ذلك لين الحضارة ، وسهولة طباع الأخلاق . فانتقلت العادة ، وتغير الرسم ، وانتسخت هذه السنة ، وأخذوا بشعرهم هذا المثل ، وترفقوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم ألطف ما سنع من الألفاظ " .

فاستحال الغزل عما ذكرنا عند القدماء إلى " ذكر الصدود والهجران ، والواشين والرقباء ، ومنعة الحرس والأبواب ، وفي ذكر الشراب والندامى ، والورد والنسرير والنيلوفر ، وما شا كل ذلك من النواوير البلدية ، والرياحين البستانية ، وفي تشبيه التفاح ، والتحية به ، ودس الكتب وما شا كل ذلك ^(٢) " . وهكذا في كل فن تدخلت الحياة الغالبة ، فجذبت مادة الشعر وإن لم تجدد صورته العامة . أما اللفظ فقد صنى ونقى وجدد أحياناً . فاستعمل في الشعر اللفظ المولد ، واللفظ الفارسي ، واللفظ اليوناني . ووجد الإفراط ، وحسن التخلص ، وما يشبههما من الفنون البديعية .

البديع العربي يتأثر ببلاغات الأمم الطارئة على العربية : أخذ البديع العربي يظهر في مظهر جديد، منذ بدء عصر الترجمة، ولا سيما في عهد المنصور . وليس لنا أن نذهب في تقدير البرهان المادى، قولاً أو أثراً، إلى حد إهمال البديهيّات التي تقضى بها الطبيعة، في كل عصر وفي كل أمة . فلم يقل أحد عندنا اليوم إن كتاباً من كتب البلاغة الإفرنجية قد ترجم . ومع ذلك فإن كثيراً منا قد قرأ كثيراً من بلاغتهم وبلاغة من سبقهم، وتأثر بها في كتاباته، ولا أشك في أن هذا كان يحدث بالأمس كما يحدث اليوم، في كل أمة، وفي كل زمان . فإذا أعوزنا الدليل المادى على وجود بلاغة يونانية، وبلاغة هندية، وبلاغة فارسية، وغيرها في العصر العباسى الأول، فليس معنى هذا إنكار العادى جداً من نواميس الحياة، وعدم الأخذ بمنطق الواقع . فكيف بنا وأمامنا إشارات تاريخية (سأحدث عنها في باب آت) إن تكن وجيزة فإن وراءها ما وراءها .

إن أعسر ما يمكن تاريخه في كل عصر، وفي كل أمة، هو أولية الأشياء . ولذلك كان تأريخ الترجمة في أيام المنصور العباسى غامضاً . وعندى أن ما هو موجود من قيل ذلك ليس إلا تأريخ الترجمة الرسمية، غير كامل ولا مستوفى . فإذا كان العصر العباسى الأول، عصر اكتمال النحو، ووضع علم العروض تاماً، وعصر الخوض في البديع وطلبه طلباً معتمداً مقصوداً، على قواعد وأصول؛ وإذا كان هذا العصر عصر التجدد المادى، والنفسى، والعقلى، والدينى، وإذا كان هذا العصر عصر التجديد الأدبى في نمط القصيدة، والثورة على التقاليد الشعرية العربية الخالصة؛ وإذا كان هذا العصر وقبله شيئاً عصر اتصال المعتزلة بالفلسفة اليونانية، ووجود بعض مبادئها في مذاهبهم، مع أنه ليس عندنا اليوم دليل مادى على ترجمة شىء منها في أيامهم؛ إذا كان هذا كله، مضافاً إليه الأمتزاج الدموى والعقلى بين العرب والفرس واليونان والمريان والهنود، في تلك المملكة الإسلامية المنبسطة الأرجاء، فإنه من العبث إنكار تأثير البديع العربى إذ ذاك بهذه البلاغات الغريبة . وجهد ضائع انتظار النص القائل : إن بشاراً قد اقتبس من البديع اليونانى، أو الفارسى كيت وكيت، أو أن أبانواس قد قرأ كذا وكذا من كتب أرسطو، أو أن استاذة لقنه كذا وكذا من بلاغة الفرس .

أما أى هذه البلاغات الأجنبية قد ترك الأثر الأكبر في بلاغة شعر العرب، فذلك ما سأحدث عنه في فصل يأتى .



انتصار الحديد : وأما كيف استقبل الناس هذا الشعر الحديد، فقد بينت أنه كان يصور نفوسهم إذ ذاك ومشاعرهم، فأحبوه وتهاوتوا عليه . وليس أدل على هذا من أمثلة كتب الأدب التي تؤرخ هذا العصر بمظاهر الإعجاب بهؤلاء الشعراء .

هذا عن الناس جميعا، أما عن العلماء، فإنهم قد تأخروا شيئا في النظر إلى الحديث نظرة تسوية بينه وبين القديم . ويقول نيكولسن "إن ابن قتيبة، الذي مات آخر القرن التاسع الميلادي، كان أول ناقد من النقاد أصحاب الشأن أعلن أن القدماء والمحدثين، إنما يجب أن يحكم عليهم بمواهبهم، لا بأعصارهم . في مقدمة كتابه الشعر والشعراء" ثم ينقل العبارة وهي معروفة .

أما كراتشكوفسكى ناشر "بديع ابن المعتز" فيرى في مقدمة كتبها لهذا الكتاب أنه في عصر ابن المعتز، كان العلماء والنقاد قد استقروا على النظر إلى القديم والحديث نظرة التسوية . ويستدل على ذلك بما يراه في كتاب البديع من اختيار غالب ما فيه لمحدثين .

ولكن هناك أيضا ما سبق هذا، ويدل على تسوية العلماء بين المحدثين والقدماء .

يقول ابن الأثير في كتابه المثل السائر^(١) بعد أن يذكر أبيات أبي نواس :

ودار ندامي عطلوها وأذلحوا بها أثر منهنم جديداً ودارس

"ومما انتهى إلى من أخبار ابن المزرع، قال سمعت الجاحظ يقول : لا أعرف شعرا يفضل هذه الأبيات التي لأبي نواس، ولقد أنشدتها أبا شعيب القلال فقال : والله يا أبا عثمان ! إن هذا هو الشعر، ولو تقرأ لطن . فقلت له : ويحك ما تفارق عمل الجرار" .

وهناك أيضا ما يفيد هذا وإن تأخر عنه . وذلك فيما ذكره ابن الأثير أيضا، عن كتاب اسمه "الروضة" للبرد . يقول عنه : "وهو كتاب جمعه، وأختار فيه أشعار شعراء . بدأ فيه بأبي نواس، ثم بمن كان في زمانه، وأنسحب على ذيله"^(٢) . وللبرد في ذلك عبارة صريحة في كتابه الكامل يقول : "وقال بعض المحدثين (قال الأخفش : هو حبيب الطائي) وليس بناقصه حفظه من الصواب أنه محدث"^(٣) .

(١) ص ٣٢٨ طبع بولاق . (٢) المثل السائر : ص ١٨٩ طبع بولاق . (٣) كتاب الكامل :

ص ٧١٤ طبع أوربا .



أتى بعد هؤلاء طبقة أخرى هي طبقة أبي تمام ومعاصريه . وكانت التقاليد الشعرية الجديدة ، والفنون التي خلقها هؤلاء قد أخذت تستقر استقرارا صحيحا . وكانت الفلسفة قد أخذت تتوطد دعائمها ، وتقوى أركانها ، وطفرت العقل الإسلامي طفرة واسعة . فبدأ الشعر يستحيل مع هذه جميعا ، إلى لون من ألوان التعبير عنها . فطلبت المعاني والفكرة ، وغدا الشعر فنا يصنع صناعة ، وأنقسم الناس فيه قسمين ، تبعاً لمؤثرات وجدت إذ ذاك ستحدث عنها . وهذان القسمان هما : أصحاب اللفظ ، وأصحاب المعنى . وهذان النوعان قد وجدا في الطبقة السابقة من المحدثين ، كما وجدا في الإسلاميين ، والجاهليين . ولكنه في المرة كان نتاج كل ما مضى ، وأبن ذلك التقدم الرائع الذي وصل إليه العقل الإسلامي ، والحس الإسلامي في ذلك العصر .

(د) بين أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى :

أصحاب المعنى والسرقات الشعرية : كان لمذهب عد السرقات الشعرية ، وتحوى المعنى الجديد المبدع ، أثر هائل في توجيه الشعر العربي ، والتأثير في صياغته ، وفي معانيه ، وفي فنونه . فقد كان الخلق للعاني عسرا لكثرة ما قال الشعراء ، وكان الشاعر لا يستطيع أن يخلق قصيدة كاملة بديعة ، لا يمس فيها معنى لشاعر سبقه . فكان الخلق ، بطبيعة الحال ، يقف عند البيت والبيتين ، ولا تمكن الإطالة في المعنى الواحد حتى تستغرق القصيدة ، وإلا عد ذلك إسهابا لا تقبله النفس السامية قبولا رضيا . فأضطر ذلك الشاعر إلى تضمين البيت الواحد معنى مخلوقا أو بديعا يودعه البيت ، ثم يذهب بعده إلى أعمال الفكر ، وكد الذهن ، والنظر في جوانب نفسه ليبحث عن غيره . فإذا عثر عليه أودعه بيتا أو بيتين ، فإذا تم له ذلك أخذ في غيره ، وهكذا مع شيء من مراعاة الانتقال ، التي هي لازمة طبيعية تلزم الفكر الإنساني . فإذا تمت له القصيدة ، وأستوت له المعاني التي شاء أن يهديها للناس أخرجها إليهم . فإذا بها قصيدة مجزأة بادية التفاوت ، والاختلاف ، غير مستوية ، على حد تعبيرهم ، لم يقصد فيها إلى معنى كلي تحفة ، وإنما هي مركبة من معان جزئية ، يتقارب أحدها من سابقه ، أو يبعد عنه .

ولقد جنى ذلك العد للسرقات ، وإحصاء المعاني ، على الشعر قدر ما أفاد تاريخ تطور المعنى الواحد في الشعر كله ، فأحصرت مواهب الشعراء إذ ذاك ، في التنقيب عن معنى جديد لم يسمع

به الناس ، ولو كان تافها . وأثوت أساليب التعبير إلتواء ، الغاية منه إخفاء المعنى القديم ، أو زيادة شيء فيه ، أو نقله من شيء إلى شيء ، حتى يفيد ذلك أن الشاعر تصرف فيه . وقد صرف هذا الإغراق في الجزئى الشاعر عن الكليات . فلم تتغير فنون الشعر ، وإن كان الفن الواحد قد تجمع له الكثير من المعانى ، الرائع منها والسفساف . وكان الشاعر يحس ذلك من نفسه ، ويلقى في ذلك العنت . وكان نتاج هذا العمل المر شعرا كله تكثف ، وكله تعمل لا تقبله النفس كله ، فإن قبلت بعضه ، فليس ذلك كله عن طريق القلب كما يجب في الشعر ، وإنما هو عن طريق العقل .

التحسين اللفظى ودواعيه : وأحسن الشعراء ذلك فأرادوا لأنفسهم عوضا عن رونق الشعر ومائته ، فوجدوه في شيء آخر ، فحده لهم أسلافهم من قبل ، أنسياقاً مع الطبيعة مرة ، والسابقة مرة أخرى ، وتأثرا بما نقل لهم عن بلاغات الأمم التي سبقت إلى الحضارة ، ونها لها في شعرها ونثرها أساليب منظمة . فقد كان كآبا الخطابة والشعر لأريستو معروفين ، وكان الكثيرون في حواضر الدولة الإسلامية الكبرى يعرفون اليونانية والفارسية والسريانية . وكانت اليونانية لغة الحديث في بعض البيوت ولغة الثقافة في ذلك العصر . وكان شعر هوميروس يتناشد في بعضها ، فيصغى له الناس ويفهمون أنه شعر كبير شعراء اليونان . وقد نجد الجوارى في قصور الخلفاء يؤدبن أولادهن بآداب الروم ، وقراءة كتبهم ، ويعلمونهم اللغة اليونانية^(١) كذلك كانت الفارسية لغة العنصر الغالب على الدولة العباسية حينئذ ، وكانت السريانية اللغة التي نقل عنها العرب كثيرا من كتب اليونان . هذه اللغات كانت ذات أساليب منتظمة ، ودراسات في البلاغة والخطابة والشعر . ومن هذه ما يختص باللفظ ، والرخص الشعرية ، وتجميل العبارة . فاستعاض الشعراء يومئذ عما فاتهم من مائبة الشعر بشيء من موسيقى اللفظ . فطلبوا البديع وغلوا في طلبه ، وتعلموه وعرفوه ، حتى نسمع أبا تمام يحدث البحترى^(٢) عن الاستطراد في الشعر ويضرب له المثل في شعر من شعره ، وهو ضرب من البديع يحدثنا عنه البلاغيون والنقاد المتأخرون بإسهاب . كما نسمع العلماء ، كالخليل بن أحمد والأصمعي^(٣) ، قبل أن يكتب ابن المعتز كتابه (البديع) ، يتحدثان في المطابقة من أنواع البديع^(٤) .

(٢) طبقات الأطباء : ج ١ ص ١٨٥

(١) طبقات الأطباء : ج ١ ص ١٨٥

(٤) العمدة : ج ٢ ص ٧ و ٨ ، وكذلك إيجاز القرآن للبائلي :

(٣) العمدة : ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣

ص ٤١ ، وفي ص ٤٣ يتكلم الخليل عن التجنيس .

طابع الشعر الجديد : وبذلك أستحال الشعر، في يد هذه الطائفة، إلى صناعة من الصناعات يطالب فيها المعنى طلبا مكثودا، فإذا جاء الشاعر إلى دور صياغة المعنى، وضعه في قالب من الألفاظ مراعى فيه التنسيق والزينة . فيقابل بين هذه اللفظة وتلك ، وبين هذا المعنى وقسيمه ، ويلاحظ الزين، والجرس، والميلن، والحقاء . وقد يعسر هذا كله فيجور المعنى على اللفظ فيخشن ويستوحش، أو يجور اللفظ على المعنى فينقص ويغمض ، ويشبه الشعر بالفلسفة ، ويبعد الخيال في البحث عن الصورة، ويخرج الشعر يومئذ من الدائرة التي وضعت له إلى دائرة النثر الفني ، ويمس الفلسفة مساسا عميقا ، وإن لم يخلُ من فيض نفسي ، أو خطرة تمس القلب وتهز المشاعر ، فيرضى ذلك أذهان بعض الناس ، الذين تقدمت ثقافتهم إلى حد أصبحت تتطلب فيه من كل شيء ما يرضى عقولها وقلوبها جميعا . ولست أريد هنا أن أحدثك عن مبلغ ثقافة الناس في عصر أبي تمام وقبيله وبعده . وإنما أحيلك على فصل ممتع كتبه « أستاذنا أحمد أمين » في ذلك، في كتاب ضحى الإسلام وأكثفى بأن أقول لك ، إن الجاحظ كان يجلس إلى أبي شعيب القلال (بائع القل) ، فينشد الجاحظ شعرا لأبي نواس ينقده القلال بقوله : " إن هذا هو الشعر ولو نُقِر لطن " وأن أبا العتاهية كان يصنع الجرار، وأن كثيرا من العلماء كانوا يرتقون من صنائع أو تجارة . هذا العصر المثقف، العميق ، المتجه شيئا إلى العملية ، والمتفلسف ، كان يستسيغ هذا الشعر المصنوع ، لما باعدت بينه الثقافة الرفيعة وبين فطرته . فقبل شعر أبي تمام ورضيه ، وأحبه . وهؤلاء كانوا يسمون أنفسهم : " أصحاب المعاني " .

أصحاب اللفظ وهم أصحاب العلم بالشعر : وهناك فئة أخرى ، كانت لا تزال سليمة الفطرة، على شيء غير قليل من سلامة الحس الشعري، يفرقون بين الشعر والنثر، يعرفون لكل دائرة حدودا ورسوما لا يعدونها . وهؤلاء كانوا يعملون الفصل في الشعر للذوق المكتسب بممارسة الشعر العربي ، ويسميهم الآمدى : « أهل العلم بالشعر » ، ويسمى طريقتهم : « طريقة العرب » .

طريقة العرب : يقول الآمدى : « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأني ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه ، المستعمل في مثله ، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له ، وغير منافرة لمعناه ، فإن الكلام

لا يكتسى البهاء والرونق، إلا إذا كان بهذا الوصف . وتلك طريقة البحترى ... فإن أنفق مع هذا معنى لطيف ، أو حكمة غريبة ، أو أدب حسن ، فذلك زائد في بهاء الكلام ، وإن لم يتفق ، فقد قام الكلام بنفسه ، وأستغنى عما سواه . قالوا : وإذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة ، وكانت عبارته مقصرة عنها ، وإسانه غير مدرك لما يعتمد من دقيق المعاني ، من فلسفة اليونان ، أو حكمة الهند ، أو أدب الفرس ، ويكون أكثر ما يورده منها بألفاظ متعسفة ، ونسج مضطرب ، وإن أنفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليمه ، قلنا له : قد جئت بحكمة وفلسفة ، ومعانٍ لطيفة حسنة . فإن شئت دعوناك حكيمًا ، أو سمينًا فيلسوفًا ، ولكلا لا نسميك شاعرًا ، ولا ندعوك بليغًا ، لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم ... وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف ، وردى اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميّه ، حتى يحتاج مستمعه الى تأمل . وهذا مذهب أبى تمام في معظم شعره .

وحسن التأليف ، وبراعة اللفظ ، يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنًا ورونقًا ، حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن ، وزيادة لم تعهد . وذلك مذهب البحترى . ولذلك قال الناس : " في شعره ديباجة " . ولم يقولوا في شعر أبى تمام . هذه الطائفة كانت تسمى : " أصحاب اللفظ " .

والفهم الصحيح لما تقوله هذه الطائفة من الناس ، يدفع بالإنسان الى الإصاخة له . فهذه الفئة ليست كما يفهم لأول وهلة من أسمها . وهم لم ينسكروا المعاني قط ، بل إن المعنى اللطيف ، والحكمة الغريبة عندهم زائدة في بهاء الكلام . وهم صنّاع شعر ، يراعون صحة التأليف ، وسلامة السبك ، وحلاوة اللفظ ، ويطلبون الديباجة ، وهم في الحق أقرب ما يكون الى أن يكونوا متأثرين بما يقوله أريسطو عن الاستعارة وجوب قربها ، وعن استعمال اللفظ فيما يدل عليه . وهم لا يمتنعون تمامًا عن تقبّل الحكمة في الشعر ولكنهم يأبون أن يستحيل الشعر فلسفة . ويقولون : إن للفلسفة آلة أخرى فلتُصنَّع لها آلتها . وهم ينكرون إنكارًا عنيفًا ذلك التجوُّز في استعمال الألفاظ ، استعمالًا يخرجها عن أصول ما وضعت له ، ويأبون التكلف والعمل ، ويقولون : إن للشعر غاية يريد تحقيقها ، فليحققها عن طريقها القويم ولا تَلتَوِبنَا السبيل . وهم لا يعثون بعد هذا بالسرققات الشعرية ، لأنهم يقولون : إن المعاني تتوارد عليها الناس جميعًا ، وليس هناك ما يمنعني أن أردد حسًا أحسسته لأن غيري سبقني إليه . وهم يقولون باستواء الشعر وعدم اختلافه ، فيتم لهم بذلك إدراك وجوب توفير الانسجام للقصيدة على أنها وحدة متماسكة .

فهم قوم لا يقيدون النفس في الشعر بأكثر مما يقيدوها به هذا الفن على أصوله ، وهم يريدون للشاعر ألا أن يقول ما يحس ، ويذهب في ذلك في غير مراعاة لما قال غيره ، على شرط أربعة أشياء :

(١) جودة الآلة . (٢) إصابة الغرض المقصود . (٣) صحة التأليف . (٤) الانتهاء إلى نهاية الصنعة من غير نقص منها ولا زيادة عليها .

— المرزوقي وعمود الشعر :

ولعل المرزوقي^(٢) أكثر وضوحا حين يتحدث عن هذا . وهم يسمون هذه الطريقة : عمود الشعر ، فيقول :

”إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ وأستقامته ، والإصابة في الوصف — ومن أجمع هذه الأسباب الثلاثة ، كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات — والمقاربة في التشبيه ، وألتحام أجزاء النظم والتأماها على تخيير من لذيد الوزن ، ومناسبة المستعار للمستعار له ، ومشكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما . فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر . ولكل منها معيار :

(١) فعيار المعنى : أن يُعرض على العقل الصحيح ، والفهم الثاقب ، فإذا أنعطف عليه جنبنا القبول والأصطفاء مستأنسا بقراءته نخرج واثقا ، وإلا أنقص بمقدار وحشته :

(٢) وعيار اللفظ : الطبع ، والرواية ، والأستعمال . فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم . وهذا في مفرداته وجملته مراعى ، لأن اللفظة لا تستكره بانفرادها ، فإذا ضامها ما لا يوافقها ، عادت الجملة هينة .

(٣) وعيار الإصابة في الوصف : الذكاء ، وحسن التمييز . فما وجدناه مصادقا في العلوق ، ممازجا في اللصوق ، يتعسر الخروج عنه ، والتبرؤ منه ، فذاك سيما الإصابة فيه ...

٤ — وعيار المقاربة في التشبيه : الفطنة وحسن التقدير . فأصدقه ما لا ينتقض عند العكس ، وأحسنه ما أوقع بين شيئين : أشتراكهما في الصفات أكثر من أنفرادهما ، ليتبين وجه التشبيه ولا كلفة ، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به ، وأملكها له . لأنه حينئذ يدل على نفسه ، ويحميه من الغموض والالتباس . وقد قيل : أحسن الشعر ثلاثة :

(١) مثل سائر . (٢) وتشبيه نابه . (٣) وأستعارة قريبة .

(١) الموازنة للآمدى . (٢) مقدمة الحماسة : شرح المرزوقي النسخة الفوتوغرافية بمكتبة الجامعة المصرية .

٥ — وعيار ألحاح النظم وألثامه، على تخيير من لذيذ الوزن : الطبع واللسان . فما لم يتعثر الطبع بأبيته وعنوده، ولم يتحسّس اللسان في فصوله ووصله، بل أستمزأ فيه، وأستسهله بلا ملال ولا كلال، فذلك يوشك أن تكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة، تسالمًا لأجزائه وتقاربا :
 وشعر كبعر الكيش فرق بينه لسان دعى في القريض دخيل

وإنما قلت : على تخيير من لذيذ الوزن؛ لأن لذيذه يطرب السمع لإيقاعه، ويمارجه بصفائه، كما يطرب الفهم، لصواب تركيبه وأعتدال نظومه

٦ — وعيار الاستعارة : الدهن، والفطنة . وملاك الأمر تقريب التشبيه في الأصل، حتى يتناسب المشبه والمشبّه به، ثم يكتفى فيه بالاسم المستعار، لأنه المنقول، كما كان له في الوضع، إلى المستعار له .

٧ — وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقترانهما للقافية : طول الدّربة، ودوام المداينة . فإذا حكما بحسن التباس بعضهما ببعض، لاجفاء في خلاهما، ولا نبوّ، ولا زيادة فيه، ولا قصور، وكان اللفظ مقسوما على رتب المعاني، قد جعل الأخص للأخص، والأخص للأخص، فهو البرىء من العيب .

وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود المنتظر، يسوقه المعنى بحقه، واللفظ بقسطه، وإلا كانت قلقلة في مقرّها، مجتلبة لمستغن عنها .

فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب .

فن لزمها بحقها، وبني شعره عليها، فهو عندهم المفلح المعظم، والمحسن المقدم، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهُمته منها يكون نصيبه من التقدّم“

أنتصار أصحاب المعنى : ثم يقول : ” وهذا جُماع ماخوذ به، ومتبع نهجه حتى الآن “ . ولكن هذا إن صدق بالقياس إلى النقاد، فليس يصدق بالقياس إلى الشعراء فقد كانوا من أصحاب المعاني .

وهؤلاء اللفظيون : ” هم القائلون : أحسن الشعر أصدق . وهم ينكرون الإحالة، والمعول عندهم على المصادقة والتحقيق، لا على المبالغة والتّمثيل^(١) “ . وعندى أن هؤلاء على صواب، وأن المذهب الآخر

قد قُبِضَ له أنصار أقوياء ، وجمهور ضخم يتقبله ، فقام على رعايته أشباه أبي تمام والمتنبي ، وكان لشعر الأول جدّة وفتنة ، ولشعر الثاني روعة وقوة . فسار المذهب ، وساد .

ويجئ إلى أن مذهب اللفظيين — وأولى بنا أن نسميهم الشعراء — لو ترك حراً فانتصر، لتغير مجرى الشعر العربي، ولخرج الشعراء من مأزق خوف التهمة بالسرقة ، وسجن خلق المعاني الجزئية ، إلى تأمل عام في غرض الشعر وغايته ، وإلى نظر في المشاعر الانسانية ، على أساس وصف الواقع ، وصفاء النفس ، واعتدال المزاج ، ولا تجمه التجديد والابتكار من المعنى الجزئي إلى المعاني الكلية ، وآتسع الأفق للنظر في ابتكار فنون جديدة في الشعر .

ولست أنسى هنا أن أشير إلى قيد آخر كان يقيد الفريقين معاً ، وناء تحت ثقله الشعر العربي ، وحاول التخلص منه أحياناً إلا إنها جميعاً كانت إرهابيات تنتهي بالفشل : هو قيد البيت " الذي ينفرد بإفادته في تراكيبه ، حتى كأنه كلام وحده ، مستقل عما قبله وما بعده ، وإذا أفرد كان تاماً " كما يقول ابن خلدون . هذا القيد كان هو الآخر حائلاً هاما دون تطور الشعر العربي ، إذا أضيفت إليه وحدة القافية .

كان أبو تمام ، شاعرنا ، من الفئة الثائرة على عمود الشعر : فئة طلاب المعاني . وأرجو ألا ينسى مع هذه التسمية أنهم كانوا يطلبون اللفظ أيضاً ، ولكني بينت كيف كانوا يطلبونه . وكان أبو تمام ذكياً ، يتخطف ذهنه من الأحداث معاني ، وكان ينصب لها نفسه نصيباً لا ملال معه .

" حكى عنه بعض أصحابه قال : استأذنت عليه وكان لا يستتر غنى ، فأذن لي . فدخلت عليه في بيت مصهرج ، قد غسل بالماء ، يتقلب يمينا وشمالا . فقلت : لقد بلغ بك الحر مبلغاً شديداً . قال : لا ، ولكن غيره . ومكث كذلك ساعة ، ثم قام كأنما أطلق من عقال . فقال : الآن أردت . ثم استمد وكتب شيئاً لا أعرفه ، ثم قال : أتدرى ما كنت فيه منذ الآن ؟ قلت : كلا . قال قول أبي نواس :

* كالدهر فيه شراسة وليان *

أردت معناه فشمس على ، حتى أمكن الله منه فصنعت :

شِرسَتَ بل لَنت بل قانِيتَ ذاكِ إذا فانت لا شك فيك السهل والجبل

ولعمري لو سكت هذا الخاكي لم هذا البيت بما كان في داخل البيت ، لأن الكلفة فيه ظاهرة ، والتعمل ^(١) بين .

”وكان أبو تمام ينصب القافية للبيت ، ليعلق الأعجاز بالصدور . وذلك هو التصدير في الشعر ، ولا يأتي به كثير إلا شاعر متصنع ، كحيب ونظرأته^(١) “ .

وهذا يرى مبلغ ما كان يكابد أبو تمام في صناعة الشعر ، وكيف أنه كان يريد إرادة . كما يقول هو في الحكاية السابقة « أردت » . وكان الشعر في يده كالسوار في يد الصائغ ، يكيّفه كيف يشاء ، فيرفع هذه اللفظة ليحل محلها أخرى ، ويأتي بالكلمة مضمومة الأول لتشبه اللفظة التي تقابلها في الشطر الآخر .

يقول التبريزي في شرحه ديوان أبي تمام في تفسير البيت :

مرقتُ ثوب عكويها يركويها فالنار تنبّع من حصي المعزاء

العكوب يروى بضم العين وفتحها ... والأشبه بمذهب الطائي ضم العين في عكوب ، ليكون مشاكلا لضم الرء في ركوب .

وينقل التبريزي عن أبي العلاء في شرحه^(٢) .

متبهم في غرسه أنصاره عند الزال كأنهم أنصار

بعد أن يفسر متبهم بالباء المعجمة بواحدة . يقول : ” ولورويت متبهم في غرسه “ . لكان ذلك مشابها لصناعة الطائي ؛ ويقويه قوله في آخر البيت وأنصاره ، ويعني بمتبهم : الذي يظهر دين النبي ... “ . ويقول أيضا في شرح البيت :

جاء نذير الحزن في بطنه بحادث أظهره الظهر^(٣)

” أحسن ما يتأول في هذا البيت على مذهب الطائي ، أن يكون عنى بالظهر ظهر نفسه ... أي أنى لما أتاني الخبر أنخني ظهري ، فأظهر ما عندي من الحزن “ . ويقول في شرح :

بكل فتى ضرب يعرض للفتن محيا محلى حليه الطعن والضرب

أشبه بصناعة الطائي أن يكون فتى منونا ... “ . وهكذا من مراعاة اللفظ ما لا حد له .

وينقل الآمدي عن محدث له عن أبي تمام بلهجة المصادق الراضى :

” وقلت : إن أبا تمام معروف المذهب فيما يعرضه من الشعر ، مألوف المسلك لما ينظمه ،

نازع في الإبداع ، إلى كل غاية ، حامل في الاستعارة كل مشقة ، متوصل إلى الظفر بمطلوبه أين أعسفه وبماذا عثر ، متغلغل إلى توغير اللفظ ، وتفويض المعنى ، أنى تأتي له وقدر ... “ .

ويقول ابن المعتز في مقدمة كتابه البديع :

” قد قدمنا في كتابنا هذا بعض ما وجدناه في القرآن، و... من الكلام الذي سماه المحدثون البديع، ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس، ومن تقيهم وسلك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثرت في أشعارهم فعرف في زمانهم... ثم أن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم، شغف به حتى غلب عليه، وتفرع فيه، وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك، وأساء في بعض. وتلك عقي الإفراط، وثمرة الإسراف“.

وفي الحديث عن الإفراط أو المبالغة يقول ابن رشيق : ” وزعم بعض المتعقبين أن الذي كثرت هذا الباب أبو تمام، وتبعه الناس^(١) بعد“.

ويقول الجرجاني عن الاستعارة^(٢): ” وقد كانت الشعراء تجرى على نهج منها، قريب من الاقتصاد، حتى أسترسل فيه أبو تمام ومال إلى الرخصة، فأخرجه إلى التعدي، وتبعه أكثر المحدثين“.

وهذه الإشارات في كتب النقد إلى مذهب أبي تمام كثيرة، وتتلخص جميعا فيما يأتي :

(١) طلب المعنى البعيد، واللطف الجديد المبتدع، وتحري ذلك تحريا مكودا متواصلا.

(٢) محاولة إخفاء المعنى المنقول عن الغير بكثير من التغميض، والتعقيد، والالتواء في التعبير،

وأستخدام الأساليب الجديدة في ذلك.

(٣) ونشأ عن هذا كثرة الاستعارات، والإفراط في استعمالها، مع خفاء العلاقة وبعدها

أحيانا. وأصبح اللفظ في كثير أشبه بالمنقول إلى معنى جديد، لا على قواعد الاستعارة القريبية المعروفة. كما أضطره ذلك إلى الإفراط والمبالغة، حتى ليتهمه دعبل بأن ثلث شعره محال.

(٤) كان من وراء هذا كله، مع تكلف إدماج الفكرة في الشعر، نقص ماء الشعر في كثير منه،

وتبدى الكلفة، ولم تكن هناك وسيلة إلى تخفيف هذا، إلا التجميل الصناعي. فتحري أبو تمام أنواع البديع، والمحسنات اللفظية من كل وجه، وبكل سبيل. وكان من نتائج اقتران طلب المعنى بطلب اللفظ، على الوجه الذي أسلفته، جور يلحق بأحدهما. فتكون الثمرة الغموض أو الغريب. وأضطر إلى أن ينحت ألفاظا من كلمات أعجمية ليؤدي معنى أرادته. فيقول :

يَسْتَغِيثُ الْبَطْرِيقُ جَهْلًا وَهَلْ يَطْلُبُ الْأَمْبَطْرِيقَ الْبَطْرِيقُ

ورخص لنفسه أحيانا مخالفة قواعد النحو الشائعة فقال :

تغايّر الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتل

ولم يقل قوافيه بفتح الياء . ونقل اللفظ عن معناه، فقال :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفك ما ماريت في أنه بُرد

يقول الآمدى ... "فإن البرد لا يوصف بالركة، وإنما يوصف بالثانة والصفافة. وأكثر ما يكون ألوانا مختلفة".

الشعر عند أبي تمام وأصحابه

فالشعر عند أبي تمام قد استحال إلى مادة لينة سهلة، يصورها تصوير الصانع كيف يشاء صناعة يتحرى فيها الغرض، يريد أن يحققه . ولكن هذا التحقيق قد تعترضه قيود اللغة فيحطمها، ورسوم البلاغة فيخرج عنها، وذوق الناس فلا يعبا به، فمر ناثرو هو مجدد، وهو في هذه الثورة لا يعبا بشيء . يحطم القيود، ويعدو الحواجز، ويأبى على الشعر إلا أن يكون فكرة قبل أن يكون شعورا . لا يريد غداء الفطرة، وإنما يريد غداء العقل، وهو يتلمس فيه أيضا أن يرضى الشعور، ولكننا ذلك يأتي تالبا، موازنة : ولا يفوتني هناك أن أنبه إلى أن الفرق بين أبي تمام مع أنصاره أصحاب المعاني، وبين أصحاب اللفظ، إنما كان في هذه الثورة على المواضع، والرسوم المقررة . فكلاهما يقبلان المعاني الجديدة، ولكننا ينفرد اللفظيون بطلب الاعتدال، والاستجابة للطبع، وعدم الخروج بالشعر إلى ميدان الكتابة . وقد بينت ما كان يمكن أن يترتب على هذا من تطور في فنون الشعر . والغريب أنهما يتبادلان لونين من الحرية، ولونين من الاستعباد، فأصحاب المعاني ناثرون على كل ما يقيد الفكر، ولكنهم واقعون تحت نير ما يقيد الطبع . وأصحاب الألفاظ ناثرون على كل ما يقيد الطبع، ولكنهم واقعون تحت نير ما يقيد الفكر .



وسنرى فيما بعد أن هؤلاء اللفظيين، وكلهم من العلماء، كانوا تلاميذ أرسطو، التابعين لهدية وارشاده . من هؤلاء ابن الأعرابي، ودعبل (وكان عالما إلى شعره، كتب كتابا في الشعر والشعراء، ينقل عنه ابن رشيق كثيرا) والآمدى، والجرجاني، والمرزوقي، وابن رشيق . وأظنني قد أطلعتك على طرف من آرائهم يكفي للدلالة على ما كانوا يرون . وجميعهم صدا دعبل كانوا علماء، لم يقولوا الشعر، إلا النادر منه .



أما أنصار مذهب المعاني : فمنهم أبو تمام ، والمتنبي ، شاعران . وإبراهيم بن علي الحصري القيرواني الأنصاري . يقول عنه ياقوت " كان ... يحب المجانسة ، والمطابقة ، ويرغب في الاستعارة تشبها بأبي تمام في أشعاره ، ولتبعا لآثاره " . ومن العلماء رجل ذو مزاج شعري ، هو ضياء الدين ابن الأثير صاحب المثل السائر . وأولئك هم شعراء ، مارسوا الشعر وجرّبوه . والمثل العامي يقول : ليس من يده في النار كمن يده في الماء . وللشعر مآزق يضطر إليها الشعر اضطرابا ، لا يحسبها من خرج عنه . وهؤلاء أيضا تلاميذ أرسطو . ولكنهم غلوا فيما نصح بالاعتدال فيه ، وزالوا عما رسمه من السنن .



وبعد ، فقد قيص لمذهب المعاني عبقريتان ، قامتتا به أول أمره ، وذادتتا عنه بقوى جبارة غير عادية ، فاستمد من نفسيهما القويتين سندا . ذان هما أبو تمام والمتنبي . وظل أصحاب القانون وأنصاره يصلثونه على رؤوس الخارجين ، يشتهرون بهم في الأسواق ، ويهتفون بهم في الآفاق ، والشعراء يحملون مشاعلهم ، لا يجيب أحدهم الا بتلك الكلمة الفخورة :

"وللفصحاء المدلين في أشعارهم ما لم يسمع من غيرهم"^(١)

والناس تتغنى بهذا وتتناقل ذلك ، وتيار الحياة جارٍ إلى غير وقفة ، وفي غير كلال .

٥ - أثر أرسطو

قلت : إن الطائفتين من تلاميذ أرسطو . وتركنت عند هذه القضية بغير دليل أو تفصيل . والحق أني ممن يتهيبون التهجم على التاريخ ، وقد كنت آخر من يلج هذا الباب لولا فيض اقتناع ، وفضل حس بما أقول . إن آثار السلف مقدسة ، ولكن إحقاق الحق أقدس . ولا شك في أن قبول قوم ما عند آخرين دليل على حياتهم ، ومرواتهم ، وصلاحياتهم البقاء والكفاح . ولست أشك في أن بث فكرة التعاون بين الناس خير وأنفع للإنسانية والتقدم ، من خلق الهوات بين الأمم وأبعاد الشقة بين الجماعات . فاذا آمنت معي بهذا ، فاني لا أتهجم بك على قدس من الأقداس ، ولكني إنما أفتح لك باب معبد ، لآله دينه الحب والوئام والتعاون ، وأفض عنك قيودا قوامها الأنانية ، والخلاف ، والفتنة .

(١) العبارة للثني من الوساطة ص ٣٤٣

(١) الترجمة قبل حنين : يقول القفطى ^(١) : "إن ابن المقفع هو أول من أعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية ، لأبى جعفر المنصور . وهو فارسى النسب ، ألفاظه حكيمة ، ومقاصده من الخلل سليمة . ترجم كتب أرسطو طاليس المنطقية الثلاثة وهى : كتاب قاطيفورياس (المقولات) ، وكتاب بارى أرمنياس (العبارة أو القضايا التصديقية) ، وكتاب أنا لوطيقا (القياس وصور انتاجه) . ترجم ذلك بعبارة سهلة ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندى المعروف بكتاب كليله ودمنه ، وله تأليف حسنة ، منها رسالته فى الأدب والسياسة ، ورسالته المعروفة باليئمة : فى طاعة السلطان " . فهو يجعل اليئمة من تأليفه وإن كان الباقلانى يزعم أن ابن المقفع نسخ الجزء الخاص منها بالحكم ، من كتاب بزرجمهر فى الحكمة ^(٢) .

ولا شك أن هذه الجملة المنصبة على ألفاظ ابن المقفع فى الترجمة ، وأستحسان عبارته فيها ، وما يقع دائماً من أن المترجم الثانى يستفيد من ترجمة الأول ، وعلى الأخص إذا كان حسن العبارة سهلاً ، لا شك فى أن هذا يدفع إلى الظن بأن كثيراً من ألفاظ ابن المقفع قد نقل فى ترجمة إسحق ابن حنين ؛ لاسيما الألفاظ ذات الصيغ الجديدة للدلولات الطارئة على اللغة ، من المعانى المنطقية . أشباه « الماصدق » و « الماهية » وغيرها . هذا الخلق للألفاظ عملية جديدة تثير فى الذهن ذكرى لنظير لها فى كتاب خطابة أرسطو ؛ يسميها سانت هيلير « الكلمات المركبة » ^(٣) .

ويقول سانتلانا فى مذكراته ^(٤) :

"حكى يحيى بن عدى أيضاً قال : ألتمت من إبراهيم بن عبد الله ، الناقد النصرانى ، نص سوفسطيقا ، ونص الخطابة ، ونص الشعر ، بنقل حنين ، بتمسين ديناراً فلم يبعها ، وأحرقوها وقت وفاته " .

فكان الخطابة والشعر كانا مترجمين قبل موت حنين . وقد مات حنين سنة ٢٦٠ ، على قول ^(٥) سنة ٢٦٤ على آخر . أى قبل أن يملأ ابن المعتز كتابه البديع سنة ٢٧٤ كما يقول هو ^(٦) .

(ب) أثر أرسطو فى البيان والتبيين : وإن فى إغضاء الجاحظ مع علمه ، عن الإشارة إلى أية عبارة لأرسطو غير عبارته : " الإنسان حي ناطق " وذلك فى كتابه البيان والتبيين ، مع أن

(١) طبقات الحكماء : ص ١٤٨ (٢) إعجاز القرآن : ص ١٨ (٣) خطابة أرسطو — ترجمة سانت هيلير (ك ٣ — ف ٣) . (٤) ص ٢٥٥ النسخة الفوتوغرافية بمكتبة الجامعة . (٥) طبقات ابن أبى أصيبعة : ج ١ ص ١٩٠ (٦) البديع : ص ٢٥٨

هناك ترجمة ابن المقفع لثلاثة من كتبه ، ما يشبه سكوت ابن المعتز عن ذكر أرسطو في كتابه ، مع أن الخطابة والشعر كانا مترجمين قبل أن يملئ ابن المعتز كتابه .

وغير قريب أن يقنع الانسان نفسه أن الجاحظ لم يطلع على كتب أرسطو الثلاثة التي ترجمها ابن المقفع . كما أنه من المحتمل جدا أن يكون قد سمع شيئا من خطابة أرسطو وشعره ، مترجمين ، أو في لغتهما ، أو لغة أخرى . ويلاحظ " أثر الغارة الهيلينية على البيان العربي المحافظ " (١) ، الذي تستخرج رسومه وحدوده من كتاب " البيان والتبيين " . وكلام الجاحظ في البيان والتبيين عن البلاغة " كلام فلسفي محض ، لوقورن بمعنى أرسطو ، وخاصة في كتاب الخطابة ، لرد جله إليها " (٢) .

وهناك عبارة غامضة في الفهرست : أن كتاب الخطابة لأرسطو " يصاب بنقل قديم " . ويبدو أن عبارة " نقل قديم " (٣) يطلقها ابن النديم على النقل أيام البرامكة . ويكون الكتاب قد نقل إلى العربية في القرن الثاني الهجري .

كل هذه تثير في النفس أن الكتابين كانا معروفين للجاحظ ، ولابن المعتز . فلماذا سكتا عن الإشارة إليهما ؟ ولماذا أمسك الجاحظ ، عن نقل أى نص من كتب أرسطو ، غير هذا النص السابق ؟ وهناك أشياء أخرى تدل على اتصال المحدثين بهذين الكتابين .

(ج) أثر أرسطو في البديع لابن المعتز : يقول أرسطو في كتابه الشعر : " وإذا أصطنع الإنسان الاستعارات ، والصيغ المنحوتة ، والصور الأخرى المغيرة ، دون مراعاة للاعتدال ، وقع في نفس ما يبناه سابقا من أضحراك القارئ من نفسه . ولكن لتقدير فعل تلك الصيغ الشعرية حين يستخدمها الإنسان في اعتدال ، يكفي أن يدخلها في بيت واحد . وأما عن العبارات الغريبة ، والاستعارات والصيغ الأخرى ، فسترى صحة ملاحظتنا حين تستبدل بها الكلمات الدالة على الحقيقة " (٤) . ويقول ابن المعتز في مقدمة كتابه عن البديع .

" قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه في القرآن ، واللغة ، وأحاديث رسول الله ... وكلام الصحابة ، والأعراب ، وغيرهم ، وأشعار المتقدمين ، من الكلام الذي سماه المحدثون : البديع ، ليُعلم أن بشارا ، ومسلما ، وأبا نواس ، ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى

(١) مقدمة نقد التراث لقدماء . كتبها طه حسين . (٢) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها : ص ٢٢ محاضرة مطبوعة للأستاذ أمين الخولي . (٣) فهرست ابن النديم . طبع أوروبا ص ٢٤٤ (٤) اعتمدت في النقل على ترجمتي سانت هيلير الفرنسية ، وبرتشر الانكليزية . النص من الشعر : الفصل ٢٢ الفقرة ٨ في الفرنسية ، و ٦ في الانكليزية .

هذا الفن ، ولكنه كثرة في أشعارهم ، فعرف في زمانهم ، حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه . ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم ، شغف به حتى غلب عليه ، وتفرغ فيه ، وأكثر منه ... وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قرئت لأحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع . وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل .

ألا ترى معنى أن عبارة أرسطو كأنما ترجمت ترجمة صحيحة ، وأن الحكمين المستفادين من النصين واحد ؟ وإنما اختلفتا في التطبيق على الأديين العربي واليوناني .

تلك العبارة بعد ما سبق من إشارات تاريخية ، تكفى للدلالة على أن كتابي أرسطو ، كانا معروفين في أيام أبي تمام ، وأن ابن المعتز ، والجاحظ من قبله ، حين كتبنا كتابيهما لاحظا ما قال أرسطو . ولكن نقل بيان من لغة إلى لغة أخرى ، تخالفها في الطبيعة والتكوين ، لم يكن من السهولة بحيث يطبق كله ، فكانت محاولات بدائية لم تكتمل في هذين الكتابين ، وقاربت التمام في كتب النقد التي تلتها . وأقول : كتب النقد ولا أقول كتب البلاغة .



كما أن نهج ابن المعتز في تأليف كتابه يقارب نهج أرسطو في تأليف كتابيه . فأبن المعتز يبدأ بالكلام على الفن من الفنون البديعية ، فيعرفه إن أتيح له ذلك ، ثم يأتي بالأمثلة الكثيرة له ، ثم يذكر أمثلة لما يعاب منه . وأرسطو يفعل ذلك إلا أن الفرق بينهما فرق ما بين المبتدئ وبين البالغ غايته . فأرسطو يعلل ، وابن المعتز لا يعلل . وأرسطو شامل النظرة ، دقيق المقصد . أما ابن المعتز فقريب النظر متعثر في جديده أحيانا .

ويظهر أن ما كان متداولاً في تلك الأيام هو قطعة من كتاب أرسطو ، وليس الكتاب كله ، أو أن معظم الكتاب لم يكن مفهوما لديهم إذ ذاك ، وما فهم منه كان الجزء الخاص باللفظ وليس بالعبارة . وإنما رجعت إلى كتاب ابن المعتز أتحدث عنه هذا الحديث مع تأخره عن زمن أبي تمام ، لأنه هو أول أثر مكتوب في البديع واقع تحت أيدينا ، ولأنه إذا تبين بدلالة الآثار المادية أن علماء اللغة كانوا يستفيدون في عصور من عصورها بكتاب أرسطو ويسكتون عن ذكره ، فإن ذلك يحوز أن يكون سابقوهم قد فعلوا ذلك . ويقوى هذا إذا اقترن بما نقلت من النصوص التي تشير إلى ترجمة الكتاب .

يضاف إلى هذا أن اللغة اليونانية كانت يتحدث بها في البيوت، وكانت لغة من لغات الثقافة في هذا العصر، كما أشرت سابقاً، وأن المسلمين كانوا على اتصال بأرسطو من أيام ابن المقفع، فليس ما يمنعهم من النظر في جميع ما كتب . وأنا لنجد الخليل بن أحمد، واضع علم العروض، وأستاذ سيويه، وأستاذ حنين بن إسحق أكبر النقلة إلى العربية، يتحدث عن التجنيس من أنواع البديع ويضرب المثل له^(١) كما يتحدث عن المطابقة بمعناها البلاغي، ويتحدث كذلك عنه الأصمعي . وأبو تمام يتحدث البحتري عن الاستطراد في شعره . وقد أشرت إلى ذلك قبلاً .

(د) أثر أرسطو في أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى : كل ذلك إن لم يخلق اليقين فهو يقوى الشبهة . فإذا رجعت إلى طائفتي اللفظ والمعنى، وجدت الأولى تقول بإبعاد الألفاظ الغريبة، وبوجوب أن تكون العلاقة قريبة بين المستعار والمستعار له . هذان سببان من التي يجعلها أرسطو من أسباب برودة الأسلوب^(٢) . كذلك الغموض يفتونه، وقد مقتته قبلهم أرسطو^(٣) . فهؤلاء تلاميذ أرسطو في كتاب الخطابة .

فاذا أنتقلت إلى أصحاب المعنى وجدتهم ياجأون إلى ما يطلق عليه أرسطو "الرخص الشعرية" في كتاب "الشعر" .

(١) فالشاعر أن يصوغ كلمات جديدة، بأن يخلقها خلقاً .

(٢) وله أن يبدل حرفاً متحركاً فيها بآخر أطول منه .

(٣) وله أن يرخم الكلمة ويختزلها، وأن يتصرف في الصور الصرفية^(٤) .

كل أولئك نراه عند أنصار المعنى . وإنا لنسمع المتنبي — ولا عبرة بتأخره فهو صورة من صور العصر، وتلميذ أبي تمام، وسترى أنه يريد أن يرجع هذه الرخص إلى الجاهلية — يقول : "وللفصحاء المدلين في أشعارهم ما لم يسمع من غيرهم . كقول امرئ القيس : ديمة هطلاء، وذى الرمة : أدمانة . يعني أدماء، ... الخ" وأن أحد خصومه ليصرح به : "قد خلط هذا الرجل في احتجاجه، وجمع بين أمور مختلفة، ودلنا على بعده عن تحصيل المعاني، وذهابه عن مقاييس النحو، وأجرى كلامه إلى غاية توجب قلب اللغة، ونقض مباني العربية، لأنه جعل الشعراء بزعمه أمراء الكلام، وأباح لهم التصرف على غير ضرورة. وهذه القضية إن سبقت على أطراد قياسها، زال نظام

(١) بديع ابن المعتز : ص ٢٥ (٢) خطابة : ك ٣ ف ٣ (٣) الخطابة : الموضع عنه .

(٤) الشعر : ص ٨١ ف ٢١ وما بعدها .

الأعراب ، وجاز للشاعر أن يقول ما شاء ، وأن يتناول ما أراد عن قرب ، فيثقل كل مخفف ، ويخفف كل مثقل ، ويحذف ، ويزيد ، ويغير الجموع ، ويتحكم في التصريف ، ويتعدى ذلك إلى حركات الإعراب ، ويتجاوزها إلى ترتيب الحروف . فإذا كان هذا ممتعا محظورا ، ومتعذرا محجورا ، فلا بد من حد يقف عنده الشاعر ، وينتهي إليه الفرق بين النظم والنثر^(١) .

وأصحاب المعنى في ذلك هم تلاميذ أرسطو حين يقول : ” وعلى ذلك فليس لأحد حق ، أن ينتقد الشاعر لأصطناعه هذه الصيغ ، أو أن يضحك منه كما فعل إقليدس الشيخ ، حين أعلن أنه من السهل أن يصبح الإنسان شاعرا إذا أبيع له تطويل المقاطع حين يشاء^(٢)“ .



ولا تأخذ على آستشهادهى بأقوال المتنبي وخصمه ، وهما في زمن يتأخر بما يزيد عن قرن عن عصر أبي تمام . فإنك تستطيع أن ترى بوضوح في الكلام على أصحاب المعاني وأصحاب الألفاظ ، وأضطراب هذه المعاني بينهم ، وكلامهم عن عمود الشعر ، مما أوضحتها قبلا ، ما يجعلك تقتنع معي بأن هذا كان كلاما يتردد في ذلك العصر كله . وأن المتنبي إنما كان تلميذ أبي تمام وعصره في هذا المعنى . ولا أشك في أن تناول كل جزء من هذه الأجزاء على أنفراد لا يقنع الإنسان ، ولا يرضى العقل ، ولكنها جميعا إذا تظاهرت وأتصلت بعضها ببعض ، أنتجت ما يمكن أن يدعوه الناظر المتأمل مؤامرة من أبناء هذا العصر مقصودة ، على كتمان آثار البلاغة اليونانية في البلاغة العربية . وربما نشأ ذلك عن المعنى الديني الذي يحوط اللغة العربية منذ نزل بها القرآن . لذلك تخرجوا في التصريح بالنقل عن البلاغة اليونانية ، التي هي لغة أدب وثني ، ولم يتخرجوا في التصريح بالنقل عن الفلسفة اليونانية والطب اليوناني .

(هـ) أثر أرسطو في أبي تمام : بعد هذا كله يمكن أن أستظهر في شيء غير قليل من الارتياح النفسى ، أن أبا تمام حين كان يطلب البديع ، وأنه حين كان يريد إرادة ، إنما كان يطلبه تبعا لأصول وقواعد موضوعة . وأنه كان في ذلك متأثرا بيونانية آتته عن طريق الثقافة في عصره ، وعن طريق العلم المنتشر بين أهل جيله . وأبو تمام كان عالما ، وكان مطلعا . يعترف له بذلك خصومه قبل أصدقائه ، ويكفيني أن أحبك على ما يقولونه عن حفظه ، وعلى المحاورة بين صاحب أبي تمام وصاحب البحرى في الموازنة . فلا غرابة أن يطلع على ما كان يجري في عصره .

(١) الوساطة للجرجاني : ص ٣٤٣ طبع : صبيح . (٢) كتاب الشعر : ك ٢٢ الفقرة السابعة .

أبو تمام إذن تلميذ أرسطو حين يحمل اللفظ وحين يطلب البديع .

وأرجو أن لا ينسى مع هذا، أن أبا تمام كان يطلب المعاني قبل الألفاظ ، وأن الزينة اللفظية عنده لم تكن إلا وسيلة يستعيض بجمال موسيقاها عما قد يفوته من قوة الطبع وسهولة الفكرة . ولا يختلط علينا الأمر ، كما اختلط على ابن رشيق حين عارض ابن الرومي في قوله عن أبي تمام : ” إن الطائي كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ ، حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لآتى بها “^(١) .

” قال بعض من نظريين أبي تمام وأبي الطيب : إنما حبيب كالقاضي العدل ، يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه ، بعد طول النظر والبحث عن البينة ؛ أو كالفقيه الورع ، يتحرى في كلامه ، ويتحجج خوفا على دينه . وأبو الطيب كالمملك الجبار ، يأخذ ما حوله قهرا وعنوة ، يهجم على ما يريد ، لا يبالي ما لقي ، ولا حيث وقع “^(٢) .

وهذا الحكم يبين كيف كان أبو تمام يتحرى اللفظ بعد تحزى المعنى . وهو لا ينفص قول ابن الرومي ، فإن المعنى كثيرا ما كان يضطره إلى إغراب في اللفظ ، تثقل به النفس . وذلك واضح في ديوانه . وكثيرا ما نقل اللفظ عن معناه المعروف به . فنقل البرد من الثوب الصفيق إلى الثوب الرقيق . وتبعه البحتري في ذلك ونقل الوشاح ، عن معناه المعروف إلى الحزام . في قوله :
 من الهيف لو أن الخلاخيل صوّرت لها وشحّا جالت عليها الخلاخيل^(٣)

وأشبه ذلك مما اعتبره النقاد الأقدمون خطأ من أبي تمام ؛ ولعمري إنه ترخيص أبي تمام لنفسه مالا يرخص لغيره ، تحت حكم المعنى القاهر . وما كان على علمه الذي يصفونه لنا ، بالذي يخطئ في فهم معنى الوشاح ، والبرد ، والوشائع .

(١) العمدة : ج ١ ص ٨٦ . (طبع هندية بالقاهرة) . (٢) العمدة : ج ٢ ص ٨٧ .

(٣) راجع اعتراض الآمدى على ذلك في الموازنة .